تاريخ ما بين السطور
حين سقطت هامات
الكبرياء في بدر

رمضان مصطفى سليمان

الوثيقة، والوفد، وبدر الأولى:
حوارات على أعتاب التاريخ"

بين الحقيقة والدعاية .

الراوي (بصوت مفعم بالدهشة) :

ما أعجب التاريخ حين يُروى بمداد الحقيقة لا بضباب الدعاية الفجة ، أو التحيز المقيت ! وما أبهى سطوره حين تضيء نورا ساطعا ما بين السطور من كوامن الدهاء والخديعة، والوفاء والخيانة ! **الكامنة** في طبيعة البشر .

وفد غريب على أبواب المدينة :

الراوي:

بعد أسابيع قليلة من الهجرة النبوية الشريفة المباركة إلى يثرب، وبينما كان عهد النبي ﷺ مع قبائل اليهود الثلاث – بني قريظة، بني النضير، وبني قينقاع – لم يجف حبره بعد، إذ بوفد بدوي (من أهل قريش) مريب يطأ أرض المدينة المنورة. عشرة رجال أقوياء البنية، وجوههم تشي بالكبرياء الصحراوي العتيق، وخطاهم تحمل خُيلاء الجاهليّة البغيض.

عجبًا! لم يسألوا عن مسجد النبي ﷺ ، ولم يقصدوا داره، بل اتجهوا إلى حصن كعب بن أسد اليهودي، سيد بني قريظة .

فما الذي جاء بهم إلى يثرب ؟ ولماذا هذا اللقاء السري مع يهود يثرب ؟

الراوي:

لنفكّ هذه الرموز، لا بد أن نعود إلى ذلك العهد النبوي الخالد، عهد مدنيّ سماويّ لم يعرف اليهود في يثرب أمانًا مثله من قبل و لن يعرفوا مثله في تاريخهم ، و لكن يعرفوا في حياتهم عهدا به أمانا ، فقد تعودوا هم على الغدر و الخديعة و الخيانة و الكذب .

عهدٌ وميثاقٌ مدنيّ

الراوي:

اليهود الذين جاءوا من الشمال ، و الذين نزلوا يثرب زمنًا طويلا، لا نصرةً للأنصار المسلمين ، بل خديعةً وتفرقة للأنصار ، وجدوا في العهد النبوي أمانًا وعدلًا لا مثيل له. ولكن...

صوتٌ ساخر من خلف الزمان (يمثل جلوب) :

"عقد محمد اتفاقًا مع يهود يثرب... للتعاون المتبادل"!

صوتٌ فرنسي مغلف بالريبة ، و سوء الظن (يمثل هانوتو الفرنسي) :

" أراد النبي محمد باتفاق شفهي أن يُرغم اليهود على معاونته إن نشبت حرب "!

الراوي (بغضب هادئ)

وهل نسي هؤلاء أن اليهود أنفسهم استندوا إلى هذه الوثيقة حين أحدقت بهم الخطر؟ ثم أنكروا كل شيء حين دارت الدائرة ؟!

ألم يقل سيدهم كعب بن أسد يوم الخندق:

"لا عهد بيننا وبين محمد "؟ هذا الغريب الذي جاء و حجب عنا الخير الذي كنا نأخذه من القبيلتين : الأوس و الخزرج .

ثم قالوا بعدها حين تحلق الخطر :

"قل لأبي القاسم إنّا على كلمتنا."

بنود الوثيقة – قراءة بلغة العصر

الراوي:

الوثيقة نصّت على حرية العقيدة، حرمة النفس، كرامة المال، تحريم الجريمة، كفالة الرأي، والمساواة التامة في الحقوق والواجبات... بين المسلمين ، و اليهود ، فكلا الطرفين أهل كتاب .

فهل بعد هذا من عدل؟ وهل بعد هذا الوفاء من خيانة؟ فهل بعد هذا غدر و خيانة ؟ .

أبو بكر يكشف الأسرار

الراوي:

لمعرفة ما دار في اجتماع الوفد البدوي مع يهود المدينة، قصدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، رفيق النبي في رحلة الهجرة المباركة ، و أبو زوجه أم المؤمنين عائشة ، و نائبه ...

أبو بكر (بهدوء العالم بما خفي من خبايا) :

رغم العهد، لم يترك اليهود بابًا من أبواب الكيد إلا طرقوه ، طرقوا كل أبواب الغدر و الخيانة و الخديعة , .و الخسة و النذالة .

يحرضون قريشًا على محمد و المسلمين، يتواصلون سرًا مع سادة مكة ليزرعوا بذور الحقد الدفين ، حتى قال زعيمهم لأبي سفيان :

"أنتم على حق، ومحمد على باطل"!

الراوي (بدهشة و استغراب) :

أيعقل؟! الوثنية أفضل من التوحيد؟! تلك الأصنام التي صنعوها بأيديهم ، و يعبدونها من دون الله . !

أبو بكر (بحزن عميق يهز الوجدان) :

إنهم قوم ، كما تعلمون ، حرّفوا التوراة ، و كتبوا بأيديهم القذرة توراة من صنع افكارهم ، فلا يُستغرب منهم تزييف الدين ، بل و تزييف التاريخ... هم لا يريدون إلا الزعامة والسلطان في أي مكان يحلوا به .

المطالب الوقحة

الراوي:

طلب الوفد البدوي إتاوات و"جزية" كانوا يأخذونها قبل الإسلام حمايةً لمراعي الأنصار...

لكن النبي ﷺ أجابهم بهدوء :

صوت النبي ﷺ (جازمًا حازما) :

"لا نعطيكم شيئًا إلا بثمنه، ولن تُفرَض علينا إتاوة إلا بالسيف "!

الراوي:

خرجوا يهددون ويتوعدون، لكن سعد بن معاذ سخر منهم، وقال لزعيمهم عيينة بن حصن:

سعد (ساخرًا مستهزئا) :

"ارحل غير مأسوف عليك، فقد ولّى زمن الخوف"!

الرؤية النبوية للأمن

سائل:

يا أبا بكر، هل ينوي رسول الله ﷺ تشكيل جيش خاص لحماية المدينة من الأخطار التي تتهددها سواء من مكة ، و اليهود؟

أبو بكر:

بل الأمة كلّها جيش واحد ... كل مسلم جندي كتيبة الجهاد ، والقيادة في الميدان لا في المجالس. ورسول الله ﷺ أول المجاهدين، يتقدّم الصفوف بنفسه.

أول اختبار عسكري

الراوي:

وها هو كرز بن جابر يهاجم بساتين المدينة بتحريض من عيينة، فيهبّ النبي ﷺ راكبًا جواده، يسبق الصحابة، ومعه أبو بكر، وعمر، وعلي ...

أصوات أهل المدينة من المهاجرين و الأنصار :

"يا معشر المسلمين! يا أحباب رسول الله ، رسول الله خرج وحده! أدركوه"!

الراوي:

وصلوا إلى ماء بدر، وفرّ كرز، وارتجفت قريش من هول المفاجأة !

أبو سفيان (غاضبًا) :

"محمد بلغ بدرًا! يقبض بيديه على عنق مكة"!

أبو جهل (ساخرًا) :

"بمائتين من الفقراء؟ هذا عبث"!

أبو سفيان (ثائرًا) :

"ألم تخططوا لقتله؟ ألم تجمعوا على دمه؟ أين ذهبت قلوبكم؟"!

إرهاصات بدر الكبرى :

أبو جهل (متحديًا) :

" لنُعدّ العدّة! في بدر الأولى طارد لصًا... وفي بدر الثانية سيطلب قريش نفسها "!

الراوي (بحسم) :

بدر الأولى كانت اختبارًا، وبدر الثانية كانت الفرقان ، الفرقان بين الحق و الباطل ، بين الشرك و الايمان ، ...

حيث سقطت رؤوس الطغاة، لا من أعناقهم فقط، بل من علياء كبريائهم.

ذلك اليوم... شهد أن النصر يُصنع حين تتّحد العقيدة بالسيف، والإيمان بالعدل، والرسالة بالفعل. حين تتحد القلوب طلبا للشهادة ، و نصرا لرسول الله .

الفتنة في الشهر الحرام:
حين اشتعلت مكة وتحركت المدينة

فلنغطي أحداث الجبهة الإسلامية ، و أحداث قريش و حلفائها

في جريدة " الحقيقة " سنقسم أنفسنا فريقين فريق يتابع أخبار مكة ، و فريق يتابع أخبار المدينة

في مكة أسرعت إلى الحرم ، ندوة مخزوم هائجة مائجة ، أبو الحكم بن هشام فتى قريش المدلل " أحمق القوم " كما يطلق عليه كل من يأتي مكة زائرا و معظما البيت ، أبو جهل كما كناه المسلمون ، هذا الرجل الذي يحمل في صدره كل أحقاد الأبد على محمد بن عبد الله الرسول الأمين ρ يصيح في وجهي أول ما رآني :

أرأيت ؟ ها هو محمد الذي يزعم أنه يحترم الشهور الحرم ، ويقدس كعبة الله ، ها هو يقاتل في الشهر الحرام ، و يريق الدماء .

قلت أتحاشى الصدام بالفتى الأحمق :

على رسلك يا سيدي ، فأنا قادم من فوري من جوف الصحراء ، ولا علم لي بما حدث .

قال أبو جهل :

الذي حدث طالما حذرت منه قريشا ، بل حذرت منه كل قبائل العرب التي تدين لقريش بالولاء و المعاهدات ، أما لحلف أو لمصاهرات قديمة .

وددت أن تكون أكثر وضوحا في حديثك يا سيدي .

قال أبو جهل غاضبا :

تريد الوضوح ؟ حسنا . تعال معي لتسمع من الموتور الثائر . تعال .

ومن ذاك ؟

حليفنا ابن الحضرمي . تعال .

و أخذني إلى الحرم ، أوقفني أمام رجل رفع ضفيرتين فوق رأسه ، كأنه الشيطان الثائر ..

قال لي في سخط :

أجل أنا الموتور ، سكتنا على كره ، و سكتت قريش على سرايا محمد منذ طارد كرز بن جابر الفهري حتى ماء بدر . و هو لا يكف عن إرسال السرايا ،آخرها كان على رأسها صاحبه عبد الله بن جحش حين تصدينا له نرده عن أرضنا .

قاطعته :

أ كان قد دخل أرضكم أم كان في طريقه لتأمين تخوم المدينة من عدوان لصوص بني غطفان .

قال ابن الحضرمي :

لو تركناه لدخل أرضنا .

فهو إذن لم يعتد عليكم .

ويحك يا فتى ، أ كنت تريد أن نتركه حتى يعتدي علينا ؟ قاتلناه بالطبع.

أنتم إذن بدأتموه بالقتال فاضطر إلى الدفاع عن نفسه .

يقاتل في الشهر الحرام ؟ يقاتل في شعبان ؟

يا سيد عبد الله الحضرمي ، كنت تريد من فرسان المسلمين أن يستأسروا لكم ؟ قاتلوا لأنكم هاجمتموهم وهم في طريقهم ، و لم يدخلوا قط أرضكم .

قتلوا أخي عمرو ، استحل عبد الله بن جحش بأمر من محمد الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم .

و تدخل أبو جهل في الحديث لتأييد حليفه ابن الحضرمي :

أ سمعت يا فتى ، محمد يستحل الشهر الحرام و يسفك فيه دم حلفاء قريش ..

ثم صاح بصوته الجهوري وهو يصرخ ، كي يسمعه كل من في الحرم :

ألا فليعلم الحاضر منكم الغائب يا زوار بيت الله الحرام أن محمدا الصابئ قد سفك دماء حلفاء قريش ، و أمر بقتال العرب في شهورهم الحرم ، ألا فلتعلموا إن قريشا لن تبطل دم حلفائها ، لن تسكت مكة على من خفروا ذمتها ، وأحدثوا في الشهر الحرام ما لم يحدثه قبلهم أحد في العرب .

انتحيت جانبا لأتصل بالفريق الثاني في المدينة في غفلة من أبي جهل بجهاز لاسلكي بدائي صغير ، و سألت أحد الزملاء :

ماذا عندك يا صديقي ؟

أجاب من جهازه اللاسلكي :

المهم هل أنت بخير ؟ الأخبار عندنا أن مكة هائجة ، باعد أحمق قريش ما استطعت ، كن حريصا .

قلت ساخرا :

سبحان الله ، لم أعرف من قبل إنك تخاف علي ؟

قال : للزمالة حقها .

قلت : يقولون هنا أن سرية لعبد الله بن جحش قاتلت في الشهر الحرام .

قال :

أجل ، وحين عاد عبد الله بن جحش لامه رسول الله ρ أشد اللوم ، ودخلت شراذم الأخابث من بني النضير و بني قريظة يخوفون المسلمين مما سوف يقع عليهم من نقمة الله لحربهم في الشهر الحرام .

و هل لهؤلاء اليهود من عمل سوى التفريق بين المسلمين

قال :

اطمئن يا زميلي ، فبعد أيام من الخوف و الهم فرج الله على المسلمين كربهم و غمهم و حزنهم حين أنزل على رسوله ..

بسم الله الرحمن الرحيم : " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير و صد عن سبيل الله و كفر به والمسجد الحرام ، و اخراج أهله منه أكبر عند الله ، و الفتنة أشد من القتل ، و لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا " صدق الله العظيم

قلت متعجلا :

والله لأذهبن بهذه الآيات إلى ندوة مخزوم ، أصرخ بها في مشاركي مكة و لا أبالي .

صاح زميلي في جهازه البدائي محذرا :

إياك أن تفعل هذا و إلا قتلوك

ضحكت وأنا أقول :

يقتلون شبحا من القرن الرابع عشر بعد الهجرة .

و عدت إلى الحرم ، كان أبو جهل يحرض قريشا على الخروج لحرب رسول الله ρ وفض يثرب على المسلمين ، و يقاطع كل من يطلب منه التروي و الهدوء .

و يصيح غاضبا :

و الله لن أضيع دم حليفنا ابن الحضرمي ، ولو سرنا بجمعنا كله لقتال محمد .

على رسلك يا أبا الحكم ، إن الحرب لا تؤخذ بلا روية و لا تدبر ..

آه .. ها هو أبو سفيان كعادته يجبن الناس .

إنما أرى أن ندرس الأمر بلا غضب ، فيحملنا ذلك إلى غير ما نحب .

و نضيع دم حليفنا يا أبا سفيان .

أنا لم أقل هذا يا أبا الحكم ، ولكن أرى أن نشيع في كل قبائل العرب أن محمدا خالف تقاليد الجزيرة كلها و اعتدى على حرمات الناس في الأشهر الحرم ، إن هذا ينفر منه من حالفه من قبائل جهينة و ضمرة و بلى واسلم ، فإذا أعددنا عدتنا و حاربناه انفض عنه الناس .

قال أبو جهل :

و لنبعث بذلك إلى حلفائنا من يهود يثرب ليوقعوا الفتنة بين المسلمين أنفسهم .

أدركت أن الآيات التي نزلت قاطعة في أمر القتال في الأشهر الحرم لم تصل بعد إلى مكة ، و أن أبا جهل لم يدر أنها فرجت عن المسلمين ما شملهم من حزن على ما حدث ، و اتصلت بزميلي في يثرب بجهاز اللاسلكي البدائي طراز العام الأول للهجرة سألته عن الحال في يثرب .

قال :

على ما تحب ، لم يعد في نفوس مسلمي المدينة الآن أي شك في أنهم لم يرتكبوا إثما .. اسمع .. لماذا لا تذهب و تقابل أبا جهل و أبا سفيان و بقية مشركي قريش ، و تذكرهم بما فعلوا بالمهاجرين ، وهم يغادرون مكة فارين بدينهم .

قلت :

فكرة و الله ، ودعنا نشعرهم بالذنب فيقع بينهم ما أرادوا أن يقع بين المسلمين .

و كن حريصا

سيكون شبح القرن الرابع عشر الهجري حريصا فاطمئن ..

و عدت إلى ندوة قريش ، فإذا بعقلاء مكة أمثال أبي سفيان بن حرب ، و عتبة بن ربيعة يكفونني المهمة التي كلفت بها نفسي ، و جلست في مكان من الندوة اسمع فيه و أرى .

قال عتبة بن ربيعة يلوم أبا جهل :

أفرطت على نفسك و علينا يا أبا الحكم ، تحملت دم ابن الحضرمي بغير ما موجب .

في حماقة قال أبو جهل :

تعني ماذا يا عتبة بن ربيعة ؟

وكان عتبة بن ربيعة من سادة مكة عاقلا متزنا حصيفا يكره الحرب ، ولو كان الأمر إليه لما وقع صدام بين مشركي مكة و مسلمي المدينة ..

قال في انصاف :

اعني إننا كنا أول من بدأ هذا الشر .. ارتكبنا مع أهلنا الذين اعتنقوا دين محمد و أردوا الهجرة إلى يثرب .. ارتكبنا معهم ما ننعاه اليوم على محمد ..

قال أبو جهل :

أكنت تريد أن ندعهم يهاجرون إليه في يثرب بما يملكون من مال فيقوى بهم علينا ؟

قال عتبة :

أ لم يكن أمامنا غير الذي فعلنا معهم؟

و مـال أبـو سـفيان إلـى رأي عتبـة مسـتنكرا مـا فعـل أشرار مكة بالمسلمين الذين فروا بدينهم إلى يثرب ..

قال معترفا بما ارتكبوا من آثام :

ألا لقد أسرفنا في هذا عليهم و على أنفسنا .

صاح أبو جهل :

الآن تقول هذا يا أبا سفيان ؟ أنـت أول مـن حرضـني على قتل ياسر بن عامر وزوجه سمية .

قال أبو سفيان :

لا أنكـر ، ولكنـي لـم أقـل لـك اقتـلهما فـي الأشـهر الحرم .

قال عتبة :

يوم هاجر إلى مكة عبد الرحمن بن عوف ،ساومته يـا أبا الحكم على أكبر قافلـة لـه دخلـت ضـممتها إلـى أموالـك ، و أسـرعت فاسـتوليت عـلى داره ، ومتـى كـان ذلـك ؟ فـي شعبان .

قال أبو جهل يشرك أبن سفيان في التهمة :

و أسرع أبو سفيان إلى الطـائف ليسـتولى علـى داره وحديقته هناك .. و أنت يا عتبة بن ربيعة لقد سلبت عثمـان بن عفان كل ما كان يملك ،وقد كان أكثرنا مالا ، و أبيـت ألا يغادر مكة وحيدا فريدا .. و استولى أبـو سـفيان علـى داره ، ولم يرعى فيه الرحم.

قال أبو سفيان مبررا جريمته :

عثمان كان من أحب بني أميـة إلـى قلبـي ، فانـا أحـق بداره من سواي .

قال عتبة يذكرهما بما ارتكبا من جرائم في حق المسلمين الأوائل :

و صهيب الرومي ؟ هل تنسى يا أبا الحكم ما فعلت به أنت و صاحبك النضر بن الحرث ؟ قتله حين لحقتم به عند كدى ، دع لنا ما تملك ، و أذهب إلى صاحبك إذا شئت ، و الله لا تغادر مكة إلا وحيدا فريدا بلا مال و لا زوجة و لا ولد .

و قال أبو سفيان :

ومتى كان ذلك يا أبا الحكم ؟ في الشهور الحرم ، كلنا اشتركنا في هذا الآثم .

قال عتبة :

فلم يغضبنا ما فعل محمد ، وقد ارتكبنا ما نلومه عليه قبله أضعافا مضاعفة ؟

قال أبو جهل :

و يحكم ، لا تكثروا من مثل هذا الحديث فينشر بين القبائل ، فلا نعذر إذا خرجنا لحرب محمد .

و أسأل زميلي عبر الأثير :

معك يا زميلي ، هل جد جديد في المدينة ؟

أجاب :

سجلت حوارا مع حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ρ عن استعداد المسلمين لأي غزو محتمل من قريش و من لف لفها من القبائل المشركة ، أ تحب أن تسمعه ؟

قلت سعيدا:

حوار مع أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب ، و لا أسمعه ؟ كلي أذان يا زميلي ، اطربني و بسرعة .

و سمعت نص حوار الزميل مع الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، سألته :

يا سيدنا حمزة ، كيف تستعدون لحرب محتملة مع قريش .

أجابه حمزة بأسلوبه المرح الهادئ :

حرب محتملة ؟ الحرب أمر حتمي يا ابني ، و المشركون يعدون للصدام ، فكيف نقف مكتوفي الأيدي ، و الله يقول لنا : " و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة " إننا يا ابنتي لا نريد غير السلام الذي ينتشر خلاله دين الله.. السلام لنا و لغيرنا .. السلام لا يتحقق بغير قوة تحميه ، ووحدة صلبة في مواجهة الدسائس و المؤامرات يا ابنتي ، ليكن ما تشاهدين الآن في مدينة الرسول ρ درسا للمسلمين جميعا في كل زمان و مكان ، القوة ، القوة، القوة ، السلاح ، السلاح .. لم يكن الرسول ρ ليترك المسلمين دون أن يعدهم للدفاع عن أنفسهم أولا ، ثم الخروج لنشر دين الله في العالمين

فماذا أعددتم للدفاع عن المدينة إذا داهمها داهم ؟

أعددنا جيشا هو الأمة الإسلامية كلها ، الكل يحارب ، لا أحد يجلس في داره ينتظر أن يدعى إلى القتال ، لا أحد يتخلف عن الصف إلا من عذر الله و الرسول .. المدينة يا ابني صارت مركزا دينيا و ثقافيا و عسكريا بكل ما في الكلمات من معنى .

هل يجري تدريب عسكري في الساحات القريبة من المدينة ؟

ضحك الشهيد العظيم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ρ و قال :

تـدريب لمـن يـا ابنـي ، كأنـك لا تعـرف مـن هـم المهاجرين ؟ إنهم فرسان مكة الأشاوش ، وكل يوم يزيد عدد أصحاب الخبرة في القتال بمن يهاجر إلينا من مكة .

فماذا عن الأوس و الخزرج ؟

قال مرحا:

أسـئلتك مسـتفزة يـا ابنـي ، ومـع هـذا فهـي كالسـهم المـريش يصـيب كبـد الحقيقـة ، الأوس و الخـزرج طرحـوا هذين الاسمين بعد أن سعدوا بالاسم الكريم و الوسام الأعظم الذي أهداهم الرسول ρ و سيتيهون به إلى أبـد الـدهر ، اسـم الأنصـار ، سيغدو لقب الأنصاري على طـول الزمـان أعظـم مفخـرة لمـن يحملـه فـي اسـمه ، هـؤلاء الأنصـار يـا ابنـي معروفون في كـل أرجـاء الجزيـرة بالفروسـية و التفـاني فـي القتال

يا سيدنا حمزة ، إنكم مقبلون على حقبة من الزمان تختلف فيها أساليب القتـال عـن أسـاليب الحـروب الجاهليـة ، و لست أشك لحظة في أن رسول الله ρ أدرك هذا ، و أعد له عدته ، و أول ذلك التدريب الشاق المتصل .

حسنا ، سألتني يا ابني عن التدريب ، دعنـي أقـل لـك هذا التدريب الحقيقي يتم في الميدان ، في السرايا التي تخرج بأهداف محددة ، أما بقيادة الرسول .

نفسـه أو بقيـادة مـن يختـاره مـن أبطـال المهـاجرين و الأنصار ، وكما قلت أنت يا ذكي التـدريب يـتم علـى قتـال يختلف تماما عن القتال الذي ألفناه قبـل أن يقودنـا العبقـري ابن أخي محمد ρ كنا قبل قيادته نقاتل بأسلوب الكر و الفـر ، كل رجل لنفسه و بنفسه لا قيادة و لا خطة ، أما ألان ؟

أما ألان ؟

ضحك حمزة و قال :

لا تريد إذن أن تقنع بالقليل ؟ حسنا . أسلوبنا الجديد هو أسلوب القيادة المنظمة التي تشرف على المعركة ،

و تدير رحاها و لا تترك للمبادرات الفردية مكانا إلا في براعة القتال و حركة المناورة ، وكل هذا يتم في إطار الخطة التي رسمها القائد و شرحها لنا قبل القتال ، الان .. هل انتهيت أسئلتك هذه البارعة المستفزة ؟ أم لا يزال لديك منها بقية ؟

ما بين مكة ويثرب:

نذر الحرب وندوة الغدر

الراوي:

ترى قريش النذر، فلا تعتبر، ويظل شياطينها من أمثال أمية بن خلف، وأبي جهل بن هشام، والنضر بن الحارث، يقطعون الطريق على كل من تسوّل له نفسه الهجرة بدينه إلى المدينة.

يفتدي المهاجر نفسه بكل ما يملك، ويستولي الأشرار على ماله وداره، فإن أبى، قتلوه دون تردد.

المراسل الأول (من المدينة) :

تتوالى نذر الصدام بين القوة الوليدة في يثرب، وبين قوة البغي المتأصلة في مكة. وكما اتفقتُ مع زميلي ، بقيت أغطي أخبار المدينة، بينما أسرع هو إلى مكة ينقل بأجهزة الإرسال البدائية – طراز العام الثاني للهجرة – أنباء قريش وتحركاتها. فجاءني صوته من هناك:

المراسل الثاني (من مكة) :

أجل يا أخي، أستقبل صوتك وأنا غير بعيد عن ندوة مخزوم، حيث تُعقد الآن جلسة عسكرية خطيرة!

المراسل الأول:

هل انقاد عقلاء قريش لتحريض أبي جهل بشن الحرب على المدينة؟

المراسل الثاني:

بل هو يعدّ العدّة لها دون توانٍ، وهو الآن مجتمع مع وفد من بني بكر بن وائل، أعداء بنـي هاشم وعبد المطلب. يعدهم أبو جهل ويمنيهم .

المراسل الأول:

وهل يعلمون أن النبي ﷺ سبقهم إلى مثل هذه التحالفات؟

المراسل الثاني:

أبو سفيان يعلم ذلك تمامًا. فقد بلغته أخبار تحالف النبي مع قبائل جهينة وبلي وأسلم وضَمْرَة. وقد وعدته جميعها بالدفاع عن المدينة إلى جانب المهاجرين والأنصار.

المراسل الأول:

ليتك تسرع إلى ندوة مخزوم لتعرف ما تم بين قريش وبني بكر بن وائل.

المراسل الثاني:

سأفعل، وسأكون على اتصال بك بعد انتهاء الجلسة.

داخل ندوة مخزوم – حوار بين قادة قريش

الراوي:

خرج أبو سفيان غاضبًا من الندوة، وعلى وجهه ملامح الغيظ المكبوت.

المراسل الثاني:

كأن شيئًا أغضبك، يا أبا حنظلة، من جلسة اليوم؟

أبو سفيان:

كل ما دار في الندوة أغضبني. هذا الفتى المخزومي – عمرو بن هشام – يريد إشعال نار تحرق الجزيرة كلها. يريد الحرب، ولا سبب إلا كراهيته لمحمد ﷺ.

المراسل الثاني (ساخرًا) :

وهل عارضته معارضة مجدية، أم كعادتك أمسكت العصا من الوسط؟

أبو سفيان:

نحن قوم تجار، وليس في مكة زرع ولا ضرع. رخاؤها بتجارتها، والحرب تعني الخراب. طريق الشام يمر قرب يثرب، وإن قُطع، فكيف نصدر ونستورد ؟!

المراسل الثاني:

وهل قلت هذا صراحة لأبي جهل؟

أبو سفيان:

نعم. وقلت له: بكر بن وائل خذلتنا مرارًا، وستفعلها ثانية إن وعدها محمد ببعض من خيرات المدينة. لكنه سَفّه رأيي .

أبو جهل (قاطعًا)

محمد لن يعطيهم شيئًا! الأنصار بايعوه على الإيواء لا على الأموال. إنما سحرهم، وسأفسد هذا السحر.

المراسل الثاني (ساخرًا) :

بغضك لمحمد سيهلك قريش كلها. وأنت يا عتبة، أما تهدّئ ابن أختك؟

عتبة بن ربيعة (متنهدًا) :

قلت له ما قلتَ يا أبا سفيان. لقد نفضت يدي من بني بكر، إنهم خونة، وإن حاربت قريش فستخذلها القبائل.

أبو جهل (صائحًا) :

لا أخشى على قريش إلا من لينكم يا أبا الوليد! تجارتكم لن تُمس، فالمسلمون أذلّ من أن يقطعوا الطريق!

المراسل الثاني:

أتقول هذا وقد هاجر إلى محمد صناديد قريش؟ عمر، أبو بكر، عثمان، سعد، وعبد الرحمن بن عوف! قلة منهم تكفي لقطع الطريق .

عتبة :

يا أبا الحكم، ماذا لو كانت الشائعات صحيحة؟ ماذا لو حالف محمد قبائل تهامة حتى مدين؟

أبو جهل:

لا أصدق هذا. وفد بني وائل لم يؤكد شيئًا.

المراسل الثاني:

اتقِ الله في قومك، لا تفسد عليهم تجارتهم.

أبو جهل (في حدة) :

دع لي رئاسة القافلة إن كنت تخشى.

المراسل الثاني (ساخرًا)

طامع في رئاسة قريش يا أبا الحكم؟ ألا يكفيك أنك صاحب اللواء؟ أنا رئيس القوافل منذ شبابي، أموالهم عندي، وإن حييتُ، فلن تنالها.

عتبة (مهدّئًا) :

لا تتشاحنا! لنا عيون من خذاعة يرسلون لمحمد. القافلة لرجل يعرف أساليب السوق: أبا سفيان.

خروج قافلة أبي سفيان

الراوي:

خرج أبو سفيان في قافلة اهتزّت لها مكة. لم يُبقِ تاجر فيها ماله إلا وضعه في تلك الرحلة. وأسرعت بالأخبار إلى زميلي في المدينة.

المراسل (ساخرا) :

لم تأتِ بجديد يا زميلي! سعد بن معاذ نفسه أخبرني أن القافلة مكشوفة التفاصيل.

المراسل:

وكم قيمتها؟

المراسلة:

خمسون ألف دينار ذهبي، عملة رومانية، ولسوف يكون لنا دينارنا الإسلامي قريبًا.

المراسل:

هل تنوون التعرض لها؟

سعد بن معاذ:

لا دون إذن رسول الله ﷺ. المهاجرون يطالبون بحقهم في استرداد ما سُلب، لكن الأمر عند القائد وحده.

غزة – آخر الطريق التجاري الآمن

الراوي:

بلغت غزة، حيث تنتهي رحلة قوافل العرب التجارية. وهناك التقيت أحد تجار الروم.

التاجر الرومي:

لنا في غزة وكالات بين الغساسنة والفرس، وأبو سفيان من ألمع التجار. ربح أضعاف ما قدر له.

المراسل:

ومتى ينوي العودة؟

التاجر:

لا أعلم، لكنه هناك مع صديقه الجذامي. تحدث إليه ، و هما يتحدثان في سرية .

حوار أبي سفيان وأبي عزة الجذامي

أبو عزة:

كم ربحت يا أبا سفيان؟

أبو سفيان:

أنا أمين على أموال قريش كلها، لا أملكها.

أبو عزة (جادًا) :

احذر يا أبا سفيان. خطر محمد أكبر مما تتصور.

عمرو بن العاص (ساخرًا)

محمد؟ ونحن قريبون من الغساسنة؟! لا تخفنا بأوهامك ، يا أبا عزة ، فمحمد و أتباعه قلة قليلة ، و نحن سوف نرسل إلى مكة لاستقبالنا .

أبو سفيان (بجدية)

صه يا عمرو، دعه يتكلم.

أبو عزة:

بلغني أن محمدًا فكّر في التعرض لكم في الذهاب، لكن الظروف لم تساعده. أما الآن... فكل شيء يشير إلى كمين مرتقب.

أبو سفيان:

صدقت. وسأرتب أمري.

المراسل:

ومع هذا التحذير، اختار أبو سفيان الطريق التجاري المعتاد في العودة.

المراسل الثاني (متسائل) :

لماذا هذا التهور؟ ليس من عادته.

المراسل:

لا أدري... كيف الموقف عندك؟

المراسل الثاني:

لا أخبار مؤكدة بعد... أمهلني قليلاً، وسأتصل بك لاحقًا.

النهاية المؤقتة – وللصدام بقية...

"رؤيا عاتكة ونذر بدر:

حوار من قلب الحدث"

بصوت مراسلنا من غزة في الشام، وقد أمسك بالميكروفون من جديد :

ها نحن نعاود الاتصال بزميلنا المقيم في المدينة المنورة، عبر جهاز الاتصال طراز "العام الثاني للهجرة". أربع وعشرون ساعة مرت دون أن يصلني منه صوت، فقلت: لنبادر نحن بالاتصال.

وما إن سمعت صوتي حتى جاء رده عاتبًا لاذعًا:

الزميل (من المدينة) :

ما هذا التكاسل أيها الزميل؟! أربع وعشرون ساعة وأنا أترقب اتصالك. ماذا جرى لك؟

الزميل (من غزة) :

بل هو سؤالي لكِ منذ البارحة! لِم لَم تتصل؟!

الزميل (من المدينة) :

أحاول مرارًا... يبدو أن في الجهاز خللًا. ومع ذلك، دعنا من هذه المماحكة. أخبرني، كيف كانت الأوضاع عندك في غزة؟

الزميل (من غزة) :

أبو سفيان، ومعه عمرو بن العاص وثلاثة من الحرس، غادروا غزة بالقافلة قبل ساعات متجهين إلى مكة. الأمس، التقى أبو سفيان بصديق له من قبيلة جذام، فنصحه بالحذر، إذ حذره من نية المسلمين التعرض للقافلة. ومع ذلك، تابع طريقه المعتاد من الشام إلى غزة، دون أن يغيره! لم ؟ لا أدري. أبو سفيان رجل داهية، وعمرو بن العاص أمكر

العرب. لا أستبعد أن وراء هذا العناد تدبيرًا ما... لكن ما هو؟ لا أجزم.

الزميل (من المدينة) :

ربما أرسلا رسائل إلى عبس وذبيان يلتمسان الحماية! لكن الغريب، لمَ لمْ يغير طريقه؟ ألا يدرك أن المسلمين يسعون لتعويض ما نهبته قريش منهم أثناء هجرتهم الأولى؟!

الزميل (من غزة) :

صدقتِ... الطريق المعتاد من غزة إلى أيلة على الخليج، ثم شرقًا إلى بهراء، فخيبر، فالمرور غرب المدينة حتى مكة.

الزميل (من المدينة) :

أما الطريق الثانية، فهي على الساحل، نادرًا ما تسلكها القوافل الكبيرة. تمر من أيلة إلى الجحفة ثم رابغ، ثم إلى مكة مباشرة.

الزميل (نت غزة) :

أتظن أن المسلمين سينالون قسطًا من حقوقهم هذه المرة؟

الزميل (من المدينة) (بحزم) :

نعم، فقد استأذن بعضهم رسول الله ﷺ بالتعرض للقافلة، فأذن لهم، بل خرج بنفسه على رأس مفرزة من المهاجرين وبعض الأنصار.

الزميل من غزة (باندفاع) :

إذن، لا مقام لي هنا! سأحاول اللحاق بالقافلة المكية... عسى أن أكتشف ما يبيّته الماكران: أبو سفيان وعمرو. كوني على استعداد للاتصال في أي لحظة!

مشهد قرب ماء بدر – على الطريق بين المدينة ومكة

أسرعت في إثر القافلة، فوجدتها في ثلث المسافة. كان الحذر بادٍ في تصرفات أبي سفيان وعمرو.

أبو سفيان:

لو صدق أبو عزة في أن محمدًا سيهاجم القافلة، فلن يجد مكانًا أفضل من مفازة بدر.

عمرو بن العاص:

ولكن، لمَ لمْ نجد أثرًا لمحمد وأصحابه؟

أبو سفيان:

يا ابن العاص، ألا تذكر أن مع محمد أبا بكر؟! خير من يقص الأثر، بل ويخفيه. لو كان محمد يكمن لنا، لاختار له أبو بكر مكانًا يخفي فيه حتى وقع الحوافر.

عمرو:

فلنسأل هذا الشيخ الجهني الجالس قرب البئر...

أبو سفيان (للرجل) :

يا أخا العرب، من أي القبائل؟

الرجل:

من جهينة.

أبو سفيان:

أحقًا أن جهينة حالفت محمدًا؟

الرجل:

لا علم لي بما تقول.

أبو سفيان:

هل رأيت غرباء هنا؟

الرجل:

رأيت رجلين على ناقتين، وردا البئر، ثم انصرفا.

أبو سفيان:

هل كانا من يثرب؟

الرجل:

لا أدري لم أسألهما.

أبو سفيان:

هل كانا يراقبان شيئًا؟

الرجل:

بقيا ساعة ثم انصرفا، ولم يحدثاني، ولم أحدثهما.

عمرو (ساخرًا) :

الرجل طاعن في السن، لا يكاد يرى ولده، إن رآه ! ما عرفه !

أبو سفيان:

ربما يخدعنا، فهو من جهينة، وهم حلفاء محمد.

في تحقيق ميداني خاطف

اقترب أبو سفيان من موضع البئر، التقط بعض الروث، ففركه بأصابعه في قلق:

أبو سفيان (في توتر و قلق) :

أرأيت يا عمرو؟ هذا روث فيه نوى تمر!

عمرو:

وما الغريب؟ تأكل الإبل التمر أحيانًا.

أبو سفيان:

بل لا يطعم البدو إبلهم التمر، هذا طعام أهل يثرب، إذن الرجلان من يثرب، ومحمد قريب من هنا!

عمرو:

فلنحوّل مسار القافلة نحو الساحل، قبل أن يفطن محمد لتحركنا، ولنرسل سريعًا إلى مكة لتحذيرهم!

عودة الاتصال بالمدينة

اتصلت بزميلي، وطلبت منها اللحاق بي في المنطقة حول آبار بدر.

الزميل (من يثرب) :

وصلت قبل أن يتحرك أبو سفيان! أحسنت باستدعائي، فقد مللت إشاعات يهود يثرب حول خرق المسلمين لقوانين الحرب.

الزميل:

هؤلاء خبراء في التحريض، وهم أول من ينكث العهود إذا اقتضت مصالحهم. أتدرين؟ درست قوانين الحرب من عهد جوستنيان حتى ميثاق الأمم المتحدة 1946!

الزميل (مداعبا) :

أتنافسني في ميداني؟! اسمع المادة 212 من القانون الدولي: "يحق للدول المتحاربة اللجوء إلى وسائل عنف معينة ضد أموال الأعداء، ويجوز إتلافها ومصادرتها"...

الزميل:

ترجمة شبه حرفية للمادة 16 من قانون جوستنيان!

في يثرب – صوت الزميلة من جديد

الزميل:

يهود يثرب ينكرون أن بين قريش والمسلمين حالة حرب، وينكرون أن قتل المهاجرين تصرف عدائي! تصدى لهم سيدنا سعد بن معاذ، وسرد لهم تفاصيل حصار بكر بن وائل لتجار المسلمين عند ساحل البحر، وكيف كانت المواجهة بقيادة سيدنا حمزة، حتى فض النزاع زعيم جهينة.

في مكة – زميلنا ينقل المشهد

وصلت إلى مكة، وكان العباس بن عبد المطلب يتحادث مع أخته عاتكة:

عاتكة:

يا عباس، رأيت رؤيا أفزعتني!

العباس (بقلق) :

أفيها شر على محمد؟

عاتكة:

بل على قريش! رأيت راكبًا ينادي: "انفروا لمصارعكم في ثلاث!"، ثم رمى من فوق الكعبة صخرة تهشمت، ولم تترك بيتًا إلا ودخلته فلقة، فتهاوى الناس وارتفع الصراخ!

العباس:

رؤيا عظيمة! اكتميها ولا تذكريها لأحد.

لكن العباس أفشى السر لصديقه الوليد بن عتبة، ومنه إلى قريش، فكان أبو جهل أول الساخرين:

أبو جهل:

أما اكتفيتم بتنبؤ محمد، حتى تنبأت عاتكة؟! بالأمس نبيّ، واليوم نبيّة!

ومضت الأيام، حتى أتى النذير.

في ساحة مكة – ضجة مفاجئة

صوت صائح:

ضمضم بن عمرو الغفاري ببطن الوادي! قد جاء ينادي!

أبو جهل (مرتبكًا) :

ما هذه الهائجة؟ ما خطبه؟

الصائح :

يا معشر قريش! العير، تجارتكم وأموالكم، قد تعرض لها محمد وأصحابه! لا أرى إلا أن تدركوها!

أبو جهل (يصرخ في هستيريا) :

رؤيا عاتكة... رؤيا عاتكة! أما من نهاية لبني عبد المطلب؟ أسرعوا إلى الأبطح!

نهاية المشهد – واستعداد لصدام بدر العظيم .

بدر... حين استيقظت قريش على هزيمتها

مراسلنا من مكة:

قريش تغلي غضبًا مذ جاءهم ضِمضِم الغفاري رسول أبي سفيان، يصيح في وجوههم:

"أموالكم مع أبي سفيان قد تعرض لها محمد وأصحابه"!

سارع زميلنا الإعلامي، يؤدي واجبه في أحلك المواقف، إلى أبي جهل، ينكزه بقوله :

"ما فتئتَ تدعو إلى حرب المهاجرين والأنصار، يا أبا الحكم... هذه، فيما أرى، فرصتك جاءت على طبق من ذهب".

ردّ أبو جهل في زهوٍ متعالٍ:

"ألا تريننني يا فتى، أسير بين الناس محرضًا؟"

سألته ساخرا:

"لأجل حماية القافلة فقط؟"

قال بحدة:

"بل لنلقّن هؤلاء الصابئين درسًا لا ينسوه. لا أحد يخرج على سلطان قريش ويفلت بها... سنقاتلهم قتال عادٍ وإرم"!

فذكّرته:

"لكن هؤلاء أبناؤك وإخوانك، فيهم ابن عمك، وأخوك عيّاش بن أبي ربيعة"!

فزمجر:

"واللات، لو تصدى لي أحدهم في ميدان القتال لهويت بسيفي على رأسه! غرّر بهم محمد... فليدفعوا الثمن"!

مراسلنا من المدينة:

قلت له:

" هناك من سادات مكة من لا يريدون الحرب، وقد جاء رسولٌ ثانٍ من أبي سفيان يؤكد أن القافلة نجَت".

قال أبو جهل باستهزاء:

"أعرف من تعني... عتبة بن ربيعة وأخاه شيبة، سأجعل شبان مكة يحرجونهم حتى يخرجوا"!

وهكذا كان... عبأت قريش جيشها بأكثر من ألف ومائتي مقاتل، ومئة فارس، والسلاح وفير، والقلوب تغلي شوقًا للانتقام.

سألت زميلي:

"ترى كيف حال المسلمين؟"

فأجابني:

"خرجوا لاعتراض القافلة، لا لحرب قريش. لكن... سأذهب أنا إليهم، وابقَ أنت مع جيش قريش".

مراسلنا من طريق بدر:

في الطريق، لقيتُ الجيش الإسلامي... في المقدمة كان حمزة بن عبد المطلب، وعلى يمينه عمر. قال حمزة مازحًا:

"أهلاً بك، أرى في عينيك نظرة إشفاق"!

قلت:

"أنتم قلة يا عم رسول الله"...

ضحك وقال:

"ومع الله؟ لا نخشى شيئًا. الواحد منا بمائة! قريش تعرف هذا"!

سألته:

"لكن أين الدروع؟"

قال:

"معنا عشرون درعًا فقط، لكننا أصحاب عزيمة، وكل سيف معنا يُعادل مئة درع".

عند معسكر المسلمين:

اقتربت من الحباب بن المنذر، سألته عن اختيارهم للآبار.

قال:

"أشرت على رسول الله بذلك، فأقرّني. احتللنا الآبار، وبنينا حوضًا ملأنا بالماء".

سألته:

"ولماذا الحوض؟ ونحن في الشتاء؟"

قال:

"الماء أساس القتال. سنشرب ونمنعهم. والمطر ساعدنا، خفف الأرض تحت أقدامنا، وأربك أرضهم الرملية".

مراسلنا من الجحفة مع جيش قريش:

أخبرت زميلي:

"وصلنا إلى الجحفة، وجاء رسول ثانٍ من أبي سفيان، يطلب العودة، إذ نجَت القافلة. عتبة بن ربيعة حاول إقناع أبي جهل بالرجوع ".

لكن أبا جهل صرخ في عناد:

"لا والله، لا نرجع! نقيم ببدر ثلاثة أيام، ننحر الجُزُر، نسقي الخمور، وتسمع بنا العرب فتهابنا "!

أمية بن خلف تدخل:

"لنعد ونحقن الدماء"...

فرد أبو جهل باحتقار:

"بل هي فرصتنا للقضاء على محمد! أتراها تأتي مرتين؟"

وارتفعت الأصوات...

قال عتبة في محاولة أخيرة:

"يا معشر قريش، دعوا محمدًا وشأنه. إن أصاب العرب، فهذا ما أردتم، وإن هُزم، فذلكم أهون"!

لكن أبا جهل مضى إلى عامر بن الحضرمي، فحرّضه على الثأر لأخيه، فصاح عامر:

"يا لثارات الحضرمي"!

وانقلب الجيش لصوت الثأر، لا الحكمة. وأُقِر القتال.

مراسلنا مع المسلمين:

سألت أبا بكر الصديق:

"ما موقف الأنصار؟ عاهدوا رسول الله داخل المدينة، لا خارجها".

قال أبو بكر:

"استشارنا رسول الله، فقلنا جميعًا :**أمضِ لما أمرك الله، نحن معك !**قالها المقداد، وقالها سعد بن معاذ:

" لو خضت بنا البحر لخضناه معك "!

وها هو الجيش يدخل بدر...

احتل المسلمون الآبار، وبنوا الحوض. وناموا ليلتهم على طمأنينة وراحة. وسُقوا مطرًا خفيفًا ، هطَل بردًا وسكينة على قلوب المسلمين .

صبيحة القتال:

قال الحباب بن المنذر:

"النعاس أزال التوتر، والمطر صلّب الأرض تحت أقدامنا، وعرقل عدوّنا".

وعند الشروق... بدأ القتال بمبارزة.

وها هي رؤوس ثلاثة من صناديد قريش – عتبة، شيبة، والوليد – تهوي على رمال بدر.

مراسلنا من التل المحيط بالسهل:

الأعراب المتفرجون يتحدثون بذهول:

"محمد لا يصمد أمام قريش ساعة"!

لكنهم شهدوا الأعجب... ثلاثة آلاف ملكٍ يضربون بسيوف من نور!

ها هو علي وحمزة وعمر يمزقون الصفوف...

وفرسان قريش يولّون الأدبار، تحت وقع ضربات شبّان الأنصار والمهاجرين.

أول نصر حاسم في الإسلام... بل في تاريخ الحق.

وفي المعسكر، تلا المسلمون:

"واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس، فآواكم وأيدكم بنصره"...

صدق الله العظيم.